* وسأل أحد أهالي بلدة (ميشلي) عن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسوية هل يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، فكان الجواب منه حسما بما يلي:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الله وآله وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد فابن (المطورني) إذا كان مكلفا ولم يعلم منه إنكار ما صنع أبوه والبراءة منه ـ فهو مثل أبيه، لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، وإن كان صغيرا فهو مسلم على فطرة الإسلام يدفن معنا ونصلي عليه.

قاله وكتبه خادم العلم وأهله

عبد الحميد بن باديس

الجزائر ٢٥ جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ[1].

ابن باديس وطريقته في التفسير

حرص ابن باديس كل الحرص على أن يكون تفسيره لآيات الذكر الحكيم واضحا كل الوضوح، يشرح ألفاظ الآية، ثم يعرج إلى معناها العام مبينا الجوانب الفقهية فيها مطبقا ما جاء بها من أحكام على السلوك العام للمسلم، وكل آية من الآيات لها تذوق إيماني، وتجليات إلهية تأخذ بيد المسلم إلى الطريق السوىّ، طريق الهدى والرشاد طريق الله عز في علاه.

يظهر هذا واضحا جليا في النماذج التالية من تفسيره المعروف باسم «تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير».

من سورة الفرقان:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ

---

(١) البصائر: السنة الثانية العدد ٧٩ جمادى الآخرة ١٣٥٦ هـ ـ ٢٠ أغسطس ١٩٣٧م.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان ١ ، ٢].

﴿تبارك﴾ مادة (ب ر ك) كلها ترجع إلى معنى الثبوت، منها بورك الإبل، استناختها، والبركة كالقربة مثل الحوض يثبت فيها الماء. والبراكاء الثبات فى الحرب، ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة، ولا ينمو ويزيد إلا ما كان ثابت الأصل، وشأن ثابت الأصل أن ينمو ويزيد، فلم تخرج عن معنى الثبوت، وتبارك من البركة فمعناه تزايد خيره.

والله تعالى له الكمال، ومنه الإنعام، فتبارك: أى تزايد كماله وإنعامه، فلا تحصى إنعاماته، ولا تحد كمالاته.

وثبوت الكمال ينافى وينفى ضده، فيقتضى التنزه عن النقص.

فانتظم اللفظ ثلاثة معان:

التنزه عن النقص، والاتصاف بالكمال، والإفاضة للإنعام. (فتبارك: تقدس وتعاظم) الفعل الأول مفيد للأول والفعل الثانى مفيد للثانى والثالث.

﴿نَزَّل﴾مادة (ن ز ل) ترجع إلى معنى الهبوط من عل، والحلول فى أسفل.

ونزَّل المضاعف أبلغ فى المعنى من أنزل، وقد يفيد كثرة النزول كما هنا، لأنه نزله مفرقا على نيف وعشرين سنة. وقد يفيد القوة فى نزول واحد كما فى قوله تعالى: ﴿لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة﴾ [الفرقان: ٣٢]، لأن تنزيل الجملة أقوى من إنزال التفصيل.

﴿الفرقان﴾ أصله مصدر فرق بمعنى فصل. وهو أبلغ فى الدلالة عن المعنى من فرق المصدر المجرد بما فيه من زيادة الألف والنون، كما فى القرآن أبلغ من القراءة لذلك.

وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم.

﴿نذيرا﴾ مادة (ن ذ ر) كلها ترجع إلى الإعلام والتحتيم، فمنها: نذر على نفسه الصوم: أوجبه وحتمه، وأعلم به. ونذر بالعدو ـ كفرح ـ عليم به. وأنذره: أعلمه، ولا يستعمل إلا فى إبلاغ ما فيه تخويف، فهو إعلام بتأكيد وتحتيم. ونذير هنا بمعنى منذر من فعيل بمعنى مفعل.

﴿الذى نزل﴾ عرف المسند إليه بالموصولية لزيادة تقرير الغرض الذى إليه سيق الكلام.

وقد ثبت بالقرآن الكريم أنه كان يدعو بالقرآن، ويذكر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجراً.

بان ـ والحمد لله ـ بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتضح طريق الحق فى الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما.

والله نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه، والقوة والإخلاص فى الصدع به والثبات عليه.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة إبراهيم الآية ٢٧].

الغرض بيان كمالات الله تعالى وإنعاماته، وتنزيل الفرقان منها، فهو من أعظم نعم الله على البشر، ومن آيات الله الدالة على قدرته وعلمه وحكمته.

﴿عبده﴾ إضافة تشريف لأنه أكمل العباد.

المعنى:

تقدس وتعاظم الرب الذى نزل الكتاب الذى يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال وحزبيهما من الناس، مفصلاً آيات على محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل عباده، ليكون بذلك الكتاب ـ لجميع الإنس والجن ـ منذراً لهم يعلمهم بعذابه، ويخوفهم بشديد عقابه إن لم يعبدوه وحده، ويخلعوا غيره من آلهتم الباطلة، ويدخلوا فى الدين الذى جاءهم به وهم الإسلام.

توحيد:

هذا الفعل وهو «تبارك» لا يسند إلا إلى الله تعالى، ذلك لأن العظمة الحقيقية بالكمال والإنعام والتقديس بالتنزه التام ليسا إلا له، وما من كامل من مخلوقته إلا وهو ـ جل جلاله ـ الذى كمله. وما من منعم عليه منهم إلا وهو تعالى الذى أنعم عليه، وما من زكى منهم إلا وهو ـ سبحانه ـ الذى زكاه.

سلـــوك:

هذا الرب الكامل المكمـل، المنعــم المتـفـضل القــدوس، هو الـذى أنزل هذا الفرقان. فإذا أردت أن ترقـى فـى درجـات الكمـال، وتظفر بأنواع الإنعـام، وتزكى نفسك الزكاء التام ـ فعليك بهدى هذا الفرقان، فهو بساط القدس، ومعراج الكمال، ومائدة الإكرام.

وقد سئلت عـائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ عن خلق النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالت: «كان خلقه القرآن[1]»[2].

فقـه واستنباط:

لما سمى الله كتابه الفرقان، علمنا أنه به يفرق بين الحق والباطل، وأهل هذا وذاك. فهو الحكم العدل، والقول الفصل بين كل متنازعين يدعى كل منهمـا أنه على الحق، فيما هو عليه من عقد، أو قول، أو عمل.

فمـا تقابل حق وباطل، ومـا تعالجت حجة وشبهة إلا وفى هذا الكتـاب الحكيم مـا يفرق مـا بينهمـا[3]. وإنما يتفـاوت الناس فى إدراك ذلك منه على حسب مـا عندهم من قوة وعلم، وصدق بصيرة، وحسن إخلاص. فعلينا ـ إذن ـ أن يكون أول فزعنا فى الفرق والفصل إليه. وأن يكون أول جهدنا فى استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه، مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه.

فإذا حكَم قبلنا وسلمنا وكنا مع ما حكم له، وفارقنا ما حكم عليه. فالله سمـاه الفرقان، لنعلم أنه فارق بنفسه، ولنعمل بالفرق به، ولا يكمل إيماننا بأنه الفرقان، إلا بالعلم والعمل.

ولما جعل ـ تعالى ـ غاية تنزيل الفرقان أن يكون عبده نذيراً، اقتضى ذلك أن نذارته تكون بالقرآن، لتقوم الحجة، وتتم الحكمة، وتحصل الفائدة وتشمل النعمة.

---

(١) كان خلقه القرآن. معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته.

(٢) جزء من حديث روى فى الصحاح مطولاً ومختصراً. رواه مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها ـ حديث ١٣٩. وأبو داود فى التطوع باب ٢٦. والترمذى فى البر باب ٦٩. والنسائى فى قيام الليل باب ٢. وابن ماجة فى الأحكام باب ١٤. والدارمى فى الصلاة باب ١٦٥. وأحمد فى المسند (٦/ ٥٤، ٩١، ١١١، ١٥٣، ١٨٨، ٢١٦).

(٣) قال تعالى: ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾. سورة الأنعام، الآية ٣٨.

وقد صرح بهذا فى قوله تعالى :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ [الأعراف : ٢].

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩].

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ [النمل : ٩١، ٩٢].

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥].

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦].

فعلينا ـ إذن ـ أن نعلم أن القرآن هو كتاب النذارة والهداية ، فنستخرج أصولها وفنونها من آياته ، وهذا حظ العلم ، وأن يكون اهتداؤنا فى أنفسنا وهدينا لغيرنا به ، وهذا حظ العمل ، وهما ركنا الإيمان .

تطبيق وتحاكم:

فى العالم الإسلامى كله اليوم طائفتان من المؤمنين[1]، يتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير ، ولكل منهما ـ فى سلوكها للقيام بتلك الخطة ـ سبيل ، وكل منهما تدعى أنها على الصواب ، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد .

فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما ، وننظر : كيف يفرق ما بينهما ومن هى المصيبة أو المخطئة . وفى ضمن ذلك تحاكمهما إليه وفصل النزاع بينهما بحكمه .

وإنما اخترناهما للتطبيق والتمثيل ، لخطر الخطة التى تنازعا عليها ، وعظيم النفع والضرر الذى يحصل من خطأ المخطئ ، وصواب المصيب بها ، ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن ، فتنازعهما عليها تنازع عليه ، فأحق فصل أن نمثل به لنعلم فصله هو بين المتنازعين فيه .

---

(١) يشير إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وما يشبهها ، وإلى الطرقية المبتدعة (عن حاشية المطبوع ص ٢٤٩).

وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة فى قيامها بالخطة، ثم نسوق آيات القرآن، وننظر من أسعد الطائفتين بها:

الطائفة الأولى:

يذكرون من يدعونهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم، لا مما ثبت عن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلا قليلاً.

ولهم عليهم فى أموالهم حق فى أوقات من السنة معلومة.

والطائفة الثانية:

يذكرون الناس بالقرآن فيأمرونهم بقراءته وتدبره، ويبينون لهم معانيه، ويحثونهم على التمسك به والرجوع إليه..

ويدعونهم إلى الأذكار النبوية الثابتة فى الكتب الصحاح، لرجوعها إلى القرآن لحكم قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

ولا يطلبون عليهم فى ذلك أجرًا.

والله تعالى يقول فى الحال الأول: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ [ق: ٤٥] وغيرها من الآيات المتقدمة فى هذا المجلس.

ويقول ـ تعالى ـ فى الحال الثانى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٥٧].

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

ويقول فى آية صريحة تامة فى بيان من يجب أن يتبع من الدعاة: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١].

ومن هم المهتدون؟ هم المتبعون للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لقوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه فى طريق دعوته الخلق إلى الله.

* * *

من سورة النحل:

(كيف تكون الدعوة إلى الله والدفاع عنها)

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

سبيل الرب جل جلاله:

شرع الله لعباده ـ بما أنزل من كتابه، وما كان من بيان رسوله ـ ما فيه استنارة عقولهم، وزكاة نفوسهم، واستقامة أعمالهم.

وسماه سبيلاً ليلتزموه فى جميع مراحل سيرهم فى هذه الحياة، ليفضى بهم إلى الغاية المقصودة، وهى السعادة الأبدية فى الحياة الأخرى[1].

وأضافة إلى نفسه، ليعلموا أنه هو وضعه، وأنه لا شىء يوصل إلى رضوانه سواه.

وذكر من أسماته الرب، ليعلموا أن الرب الذى خلقهم وصورهم[2]، ولطف بهم فى جميع أطوار خلقهم ومراحل تكوينهم ـ هو الذى وضع لهم هذه السبيل لطفًا منه بهم، وإحسانا إليهم، لينهجوها فى مراحل حياتهم، فكما كان رحيمًا بهم فى خلقه، كان رحيمًا بهم فى شرعه، فيسيروا فيها عن رغبة ومحبة فيها ومع شكر له وشوق إليه.

وأمر نبيه ـ عليه السلام ـ أن يدعو الناس أجمعين ـ وحذف معمول «ادع» لإفادة العموم ـ إلى هذه السبيل، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

اهتـــداء:

أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يدعو إلى سبيل ربه، وهو الأمين المعصوم فما ترك شيئًا من سبيل ربه إلا دعا إليه، فعرفنا بهذا أن ما لم يدع إليه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فليس من سبيل الرب جل جلاله، فاهتدينا بهذا ـ وأمثاله كثير ـ إلى الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ودعاة الله ودعاة الشيطان.

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى الأدب باب ٧٦، والدارمى فى الاستئذان باب ٦٣، وأحمد فى المسند (٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨) من طريق حذيفة بن اليمان رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان».

(٢) تحرفت فى الأصل المطبوع إلى «وطورهم».

فمن دعا إلى ما دعا إليه النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو من دعاة الله، يدعو إلى الحق والهدى. ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو من دعاة الشيطان يدعو إلى الباطل والضلال.

اقتـــداء:

فالمسلم المتبع للنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يألو جهداً فى الدعوة إلى كل ما عرف من سبيل ربه، وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع، تتضح السبيل للسالكين، ويعم العلم بها عند المسلمين، وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين.

أركـان الدعـوة:

١ ـ الداعى، وهو النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ المدعو، وهم جميع الناس.

٣ ـ المدعو إليه، وهو سبيل الرب جل جلاله. والدعوة إلى سبيله الموصل إليه دعوة إليه، فالمدعو إليه فى الحقيقة هو الله تعالى.

٤ ـ البيان عن الدعوة.

وتجىء الآيات القرآنية منها ما هو حديث وبيان عن الداعى، ومنها ما هو حديث وبيان عن المدعو إليه، ومنها ما هو حديث وبيان عن بيان الدعوة.

وتتضمن كل آية جاءت فى واحد الذكر أوجه الإشارة للثلاثة الأخرى، وهذه الآية الكريمة جاءت فى بيان كيفية الدعوة، وبماذا تؤدى؟ وكيف يدافع عنها؟ مع ذكر الداعى والمدعو إليه، فقال تعالى: ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

(الحكمة) هى العلم الصحيح الثابت، المثمر للعمل المتقن المبنى على ذلك العلم. فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة فى النفس رسوخًا تظهر آثاره على الأقوال والأعمال ـ حكمة، والأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة التى أثمرتها تلك العقائد ـ حكمة، والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة ـ وهى علم وعمل نفسى ـ حكمة، والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح ـ الجامع حكمة، تسمية للدال باسم المدلول.

استدلال واستنتاج:

في سورة الإسراء ثماني عشرة آية، جمعت أصول الهداية، من قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ [الآية: ٢٢] إلى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

وقد جمعت تلك الآيات كل ما ذكرنا من العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة.

وسمى الله ذلك كله حكمة فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء الآية: ٣٩].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من الشعر حكمة»[١] وذلك لأن من الشعر ما فيه بيان عن عقيدة حق، أو خلق كريم، أو عمل صالح، أو علم وتجربة، كشعر أمية بن أبي الصلت، الذي قال فيه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «كاد أن يسلم»[٢].

وككلمة لبيد رضي الله عنه: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل[٣]» التي قال فيها ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «أصدق كلمة قالها الشاعر»[٤].

---

(١) أخرجه من حديث أبي بن كعب، البخاري في الأدب باب ٩٠، وأبو داود في الأدب باب ٨٧، وابن ماجة في الأدب باب ٤١ حديث ٣٧٥٥، وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٦و ٥/ ١٢٥. وأخرجه من حديث ابن عباس الترمذي في الأدب باب ٦٩ حديث ٢٨٤٥، وابن ماجة في الأدب باب ٤١ حديث ٣٧٥٦. وأخرجه من حديث عبد الله بن مسعود الترمذي في الأدب باب ٦٩ حديث ٢٨٤٤.

(٢) رواه من حديث أبي هريرة، البخاري في الأدب باب ٩٠. ومسلم في الشعر حديث ١و٣و٤. وابن ماجة في الأدب باب ٤١. وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٨، ٣٩١، ٣٩٣، ٤٧٠). ولفظ الحديث ـ كما عند البخاري ـ «وأصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

(٣) هذا صدر بيت للبيد بن ربيعة وعجزه:
وكل نعيم لا محالة زائل. وهو في ديوانه (ص ٢٥٦) وجواهر الأدب (ص ٣٨٢) وخزانة الأدب (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٧) والدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العلوم العربية (١/ ٧١) وديوان المعاني (١/ ١١٨) وسمط اللآلي (٢٥٣) وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/ ١١) وشرح التصريح على التوضيح (١/ ٢٩) وشرح شذور الذهب (ص ٣٣٩) وشرح شواهد المغني (١/ ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ٣٩٢) وشرح المفصل (٢/ ٧٨) والعقد الفريد (٥/ ٢٧٣) ولسان العرب (٥/ ٣٥١ ـ مادة رجز) والمقاصد النحوية (١/ ٥، ٧، ٢٩١) ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ١٣٣) وهمع الهوامع (١/ ٣) وأسرار العربية (ص ٢١١) وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢/ ٢٨٩) ورصف المباني في شرح حروف المعاني (ص/ ٢٦٩) وشرح عمدة الحافظ (ص ٢٦٣) وشرح قطر الندى (ص ٢٤٨) واللمع في العربية (ص ١٥٤).

(٤) راجع تخريجه في الحاشية (١).

فالحكمة التى أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يدعو الناس إلى سبيل ربه بها، هى البيان الجامع الواضح للعقائد بأدلتها، والحقائق ببراهينها، والأخلاق الكريمة بمحاسنها، ومقابح أضدادها، والأعمال الصالحة: من أعمال القلب واللسان والجوارح بمنافعها ومضار خلافها.

وهكذا كان بيانه لهذه الأشياء كلها، بما صح من أحاديثه وجوامع كلمه، وهكذا هو بيان القرآن لها كلها، حيثما كانت من آياته. فآيات القرآن وأحاديثه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى بيان هذه الأشياء البيان المذكور ـ هما الحكمة التى كان يدعو إلى سبيل ربه بها.

وتلك الأشياء كلها هى أيضًا حكمة وهى التى كان يعلمها كما فى قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة البقرة الآية ١٢٩]. فصلى الله عليه وآله وسلم من داع إلى الحكمة بالحكمة، ومعلم للحكمة بالحكمة.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة: وهو الحكمة، وتجلت هذه الحكمة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا، ونقتدى بأساليب القرآن والسنة فى دعوتنا، فيما يحصل الفهم واليقين، والفقه فى الدين والرغبة فى العمل والدوام عليه.

وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود فى فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور فى العمل.

فحق على أهل الدعوة إلى الله ـ وخصوصًا المعلمين ـ أن يقاوموا ما بينا من جهل وجمود وإعراض وفتور، بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها، والعقائد ببراهينها، والأخلاق بمحاسنها، والأعمال بمصالحها.

وقد وجد الأخذ بهذه الأساليب القرآنية ـ والحمد لله ـ وأخذ أثرها ـ بفضل الله ـ يظهر فى الناس بقدر الأخذ بها، ويوشك أن تتجدد بذلك فى المسلمين حياة إن شاء الله[1].

---

(١) يشير الإمام إلى دعوة جمعية العلماء المسلمين التى أنشأها وقامت بواجب الدعوة إلى الله، وكان ابن باديس رئيسها حتى لحق بربه ١٩٤٠ م. (حاشية المطبوع: ص ٥٣٦).

الموعظة الحسنة:

الوعظ والموعظة، الكلام الملين للقلب، بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع - إذا اتعظ وقبل الوعظ، وأثر فيه - على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وقد يطلق على نفس الأمر والنهى.

الاستدلال:

ففى حديث العرباض[1] الذى رواه الترمذى وغيره:

«وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة وجلت[2] منها القلوب، وذرفت[3] منها العيون»[4] فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الأثر فى قلوبهم، فهذه حقيقة الموعظة.

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ [النساء: ٦٦] أى يؤمرون به. وقال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] أى ينهاكم.

فهذا من إطلاق الوعظ على الأمر والنهى، لأن شأن الأمر والنهى أن يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب.

بماذا تكون الموعظة:

يكون الوعظ بذكر أيام الله فى الأمم الخالية، وباليوم الآخر، وما يتقدمه، وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم، ومصيرهم إلى الجنة والنار، وما فى الجنة من نعيم، وما فى النار عن عذاب أليم، وبوعد الله ووعيده، وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ.

---

(١) هو أبو نجيح وأبو الحارث العرباض بن سارية السلمى الفزارى القرشى المتوفى بعد السبعين للهجرة. صحابى جليل من أهل الصفة. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب (٧/ ١٧٤) وتقريب التهذيب (٢/ ١٧) وتاريخ البخارى الكبير (٧/ ٨٥) والجرح والتعديل (٧/ ٣٩) والثقاة (٣/ ٣٢١) وأسد الغابة (٤/ ١٩) وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٧٨) والإصابة (٤/ ٤٨٢) والاستيعاب (١٢٣٨) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٩) وحلية الأولياء (٢/ ١٣) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦٥، ٤/ ٢٧١).

(٢) وجلت: خافت وفزعت (المعجم الوسيط: ص ١٠١٤).

(٣) ذرف الدمع ذرفا: سال (المعجم الوسيط: ص ٣١١).

(٤) رواه الترمذى فى العلم باب ١٦. وأبو داود فى السنة باب ٥. وابن ماجة فى المقدمة باب ٦. والدارمى فى المقدمة باب ١٦. وأحمد فى المسند (٤/ ١٢٦، ١٢٧).

ويكون بغيرها، كتذكير الإنسان بأحوال نفسه، ليعامل غيره بما يحب أن يعامل به، وهو من أدق فنون الوعظ وأبلغها، مثل قوله تعالى وقد نهى أنه يقال لمن ألقى السلام لست مؤمنا ـ ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] وقوله تعالى ـ وقد أمر بالعفو والصفح ـ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

تفريق بالتمثيل:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤] هذه حكمة. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] هذه موعظة.

ويقول تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩] هذه أيضا موعظة. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٤]. هذه حكمة، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤]، هذه موعظة.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠ـ٣١] هذه حكمة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] هذه موعظة.

وهكذا تمتزج المواعظ الحسنة بالحكم البالغة في آيات القرآن العظيم، فتتبعها في جميع سوره تجدها، وتدبرها تقع منها على علوم جمة، وأسرار غريزة.

حسن الموعظة:

الموعظة التي تحصل المقصود منها، من ترقيق القلوب، للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة هي الموعظة الحسنة.

وإنما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها، بوضوح دلالته على معناها، وحسن معناها بعظيم وقعه فى النفوس، فعذبت فى الأسماع، واستقرت فى القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية، فأثرت الرغبة والرهبة، وبعثت الرجاء والخوف، بلا تقنيط من رحمة الله، ولا تأمين من مكره، وانبعثت عن إيمان ويقين، ونادت بحماس وتأثر، فتلقتها النفس من النفس، وتلقفها القلب من القلب، إلا نفسًا أحاطت بها الظلمة، وقلبًا عمى عليه الران[1].

عافى الله قلوب المؤمنين.

تطبيق واستدلال:

كل هذا تجده فى مواعظ القرآن، وفيما صح من مواعظ النبى، صلى الله عليه وآله وسلم وكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما جاء فى الصحيح: «إذا خطب، وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته، واحمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، كأنه منذر جيش يقول صبحكم، ومساكم، وكان يقصر خطبه فى بلاغة وإيجاز»[2].

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها إلى أن من الموعظة ما هو حسن، وهو الذى تكون به الدعوة، ومنها ما هو ليس بحسن فيجتنب.

وبينت مواعظ القرآن، ومواعظ النبى ـ صلى الله وعليه وآله وسلم ـ ذلك الحسن.

فعلينا أن نلتزمه، لأنه هو الذى تبلغ به الموعظة غايتها، وتثمر بإذن الله ثمرتها.

وعلينا أن نجتنب كل ما خالفه مما يعدم ثمرة الموعظة كتعقيد ألفاظها، أو يقلبها إلى ضد المقصود منها، كذكر الآثار الواهية التى فيها أعظم الجزاء على أقل الأعمال.

---

(١) الران: الغطاء والحجاب الكثيف، والصدأ يعلو الشيء الجلى كالسيف والمرآة ونحوهما، والدنس، ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب (المعجم الوسيط: ص ٣٨٦).

(٢) لفظ الحديث بتمامه كما رواه مسلم فى الجمعة حديث رقم ٤٣: عن جابر بن عبد الله قال. كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة». ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، ومن ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلىّ وعلىّ». ورواه أيضًا النسائى فى العيدين باب ٢٢، وابن ماجة فى المقدمة باب ٧.

تحذيـــــر:

أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة، مسجعة طويلة، من ظلمات الماضي، لا يراعي فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تلقى بترنم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيراً ما تختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات.

هذه الحالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سد بها أهلها بابًا عظيمًا من الخير فتحه الإسلام، وعطلوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام.

فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيبًا في الناس؛ وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون.

ورحم الله أبا الحسن ـ كرم الله وجهه ـ فقد قال: «الفقيه كل الفقيه، من لم يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكره، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه».

الجدال بالتي هي أحسن:

لابد أن يجد داعية الحق معارضة من دعاة الباطل، وأن يلقى منهم مشاغبة بالتشبهات، واستطالة بالأذى والسفاهة، فيضطر إلى رد باطلهم وإبطال شغبهم، ودحض شبههم، وهذا هو جدالهم ومدافعتهم الذي أمر به صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿وجادلهم...﴾[1].

ولما كان أهل الباطل لا يجدون في تأييد باطلهم إلا الكلمات الباطلة يموهون بها، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحًا منها، ولا يسلكون في مجادلتهم إلا الطرق الملتوية المتناقضة، فيتعسفون فيها ويهربون إليها، لما كان هذا شأنهم، أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة، وطرائقهم المتناقضة والملتوية، وأن يلتزم في جدالهم كلمة الحق والكلمات الطيبة البريئة، وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة.

وهذه الطريقة في الجدال هي التي هي أحسن من غيرها، في لفظها ومعناها،

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

ومظهرها وتأثيرها، وإفضائها للمقصود من إفحام المبطل وجلبه، ورد شره عن الناس، وإطلاعهم على نقصه، وسوء قصده.

وهذه هى الطريقة التى أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالجدال بها فى قوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآيةالكريمة إلى الطريقة المحمودة المشروعة فى الجدال.

وفى آيات القرآن بيان لهذه الطريقة البيان التام، فإنه كما لم يترك القرآن عقيدة من عقائد الإسلام إلا بينها وأوضح دليلها، ولا أصلاً من أصول أحكامه وأصول آدابه إلا بينه واحتج له وذكر حكمته وثمرته، كذلك لم يترك شبهة من شبه الباطل إلا ردها بالطريقة الحسنة التى أمر بها، وجاءت السنة النبوية الكريمة، والسيرة المحمدية الشريفة، مطبقة لذلك ومنفذة له.

فالكتاب والسنة، فيهما البيان الكافى الشافى للجدال بالتى هى أحسن، كما فيهما البيان الشافى الكافى للحكمة والموعظة الحسنة.

فعلينا أن نطلب هذا كله من الكتاب والسنة، ونجهد فى تتبعه وأخذه واستنباطه منهما، وندأب على العمل بما نجده، والتحلى به، والالتزام به، من هذه الأصول الثلاثة فى الدعوة والدفاع عنها.

أحكام وتنزيل:

أمر الله بالدعوة وبالجدال على الوجه المذكور، فكلاهما واجب على المسلمين أن يقوموا به، فكما يجب لسبيل الرب جل جلاله أن تعرف بالبيان والحكمة، وأن تحب بالترغيب بالموعظة الحسنة، كذلك يجب أن يدافع من يصدون عنها بالتى هى أحسن، إذ لا قيام لشىء من الحق إلا بهذه الثلاث.

غير أن الدعوة بوجهيها والجدال ليستا فى منزلة واحدة فى القصد والدوام. فإن المقصود بالذات هو الدعوة، وأما الجدال فإنه غير مقصود بالذات، وإنما يجب عند وجود المعارض بالشبهة، والصاد بالباطل عن سبيل الله، فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم، والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه. ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على

كل حال، وكان الجدال مذمومًا في بعض الأحوال، وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه، فيكون حينئذ شاغلاً عن الدعوة ومؤديا[1] ـ في الأكثر ـ إلى الفساد والفتنة. فإذا كان جدالاً لمجرد الغلبة والظهور، فهو شر كله. وأشد شراً منه إذا كان لمدافعة الحق بالباطل.

وفي هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[2] ثم تلا: ﴿ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

تحذيـــر:

المدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، ولهذا كان الإنسان أكثر شيء جدلاً. غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه، وتقوّم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق.

فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة، فنذهب في الجدل شر مذاهبه، وتصير الخصومة لنا خلقًا، ومن صارت الخصومة له خلقًا أصبح يندفع معها في كل شيء، ولأدنى شيء، ولا يبالي بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان، وهذا هو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[3].

ومن ضبط نفسه وراقب ربه، لا يجادل إذا جادل إلا عن الحق وبالتي هي أحسن.

علينا الدعوة والجدال، وإلى الله الهدى والضلال، والمجازاة على الأعمال: الدعوة بوجهيها يجب أن تكون عامة، والجدال على وجهه عام مثلها.

---

(١) تحرفت في الأصل المطبوع إلى «ومؤيدًا» بتقديم الياء على الدال.

(٢) رواه من حديث أبي أمامة الباهلي الترمذي في تفسير سورة ٤٣، وابن ماجة في المقدمة باب ٧، وأحمد في المسند (٥/ ٢٥٢، ٢٥٦).

(٣) أخرجه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ البخاري في تفسير سورة البقرة باب ٣٧، والمظالم باب ١٥، والأحكام باب ٣٤، ومسلم في العلم حديث٥. والترمذي في تفسير سورة البقرة باب ٢٣. والنسائي القضاة باب ٣٤. وأحمد في المسند (٦/ ٥٥، ٦٣، ٢٠٥). والألد: شديد الخصومة، ومأخوذ من لديدي الوادي وهما جانباه، لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ في جانب آخر. والخصم: الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق أو إثبات باطل.

ثم يكون حظ كل أحد من الهدى والضلال على حسب استعداده وقابليته، وما سبق عليه من أمر ربه وتكون مجازاته على ذلك للخالق، الذى هو العالم بمن خرج عن طريقه وأعرض عن هداه وبالذين قبلوا هداه فاهتدوا وساروا فى سبيله.

والعدل الحقيقى التام فى الجزاء إنما يكون ممن يعلم السر والعلن، وليس ذلك إلا الله، فلا يكون الجزاء على الهدى والضلال من سواه، ولهذا ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

ثمرة العلم بهذا :

إن الداعى يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله ، وإنما عليه البلاغ. وأنه يصبر على مايلقى من إعراض وعناد وكيد وأذى ، دون أن يجازى بالمثل، أو يفتر فى دعوته من أذاه ، لعلمه بأن الذى يجازى إنما هو الله .

جعلنا الله والمسلمين من الدعاة إلى سبيله كما أمر ، الصابرين المحتسبين أمام من آمن وشكر ، ومن جحد وكفر ، غير منتظرين إلا جزاءه ، ولا متكلين إلا عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

من سورة يوسف :

سبيل السعادة والنجاة

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨].

تمهيد :

خلق الله تعالى محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل الناس، وجعله قدوتهم، وفرض عليهم اتباعه والائتساء به [١]، فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب، ولا وصول

---

(١) حيث قال جل وعلا: ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ سورة الأحزاب: الآية ٢١.

لهم إلى السعادة فى دنياهم وأخراهم، ومغفرة خالقهم ورضوانه ـ إلا باقتفاء آثاره والسير فى سبيله.

فلهذا أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يبين سبيله بيانا عاما للناس، لتتضح المحجة للمهتدين، وتقوم الحجة على الهالكين.

أمره أن يبينها البيان الذى يصيرها مشاهدة بالعيان، ويشير إليها كما يشار إلى سائر المشاهدات، فقال له: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾.

ثم بَيَّنَ سبيله بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الله على بصيرة، وتنزيه الله تعالى، والبراءة من المشركين، فقال: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الدعوة إلى الله:

فالنبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من يوم بعثه الله إلى آخر لحظة من حياته، كان يدعو الناس كلهم إلى الله، بأقواله وأفعاله وتقريراته وجميع مواقفه فى سائر مشاهده.

وكانت دعوته هذه بوجوهها كلها واضحة جلية لا خفاء بها، كما قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»[1]، فكانت مشاهدة معينة، كما أشير إليها فى الآية إشارة المعين المشاهد.

كان يدعو إلى دين الله، ويبين هو ذلك الدين ويمثله: يدعو إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته، ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة، فكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كله دعوة إلى الله. فما دعا إلى نفسه، فقد مات ودرعه مرهونة فى دين.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (المقدمة، باب ١ حديث ٥) عن أبى الدرداء قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال «أالفقر تخافون؟ والذى نفسى بيده لتصبن عليكم الدنيا صبا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلا هيه. وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء».
وقوله: «البيضاء» أى على قلوب بيضاء نقية عن الميل إلى الباطل، لا يميلها عن الإقبال على الله تعالى السراء والضراء.

وما دعا إلى قومه، فقد كان يقول: «لا فضل لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بتقوى الله»[1].

كان يدعو الناس كلهم، إذ هو رسول الله إلى الناس كلهم، فكتب الكتب وأرسل الرسل، فبلغت دعوته إلى الأمم وملوك الأمم.

كان يدعو الكافرين كما يدعو المؤمنين، يدعو أولئك إلى الدخول في دين الله ويدعو هؤلاء إلى القيام بدين الله، فلم ينقطع يوما عن الإنذار والتبشير والوعظ والتذكير.

كان يدعو إلى الله على بينة وحجة يحصل بها الإدراك التام للعقل، حتى يصير الأمر المدرك واضحا لديه كوضوح الأمر المشاهد بالبصر، فهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة إلى الله في حياته كلها، وفي جميع أحواله.

وكانت دعوته المبنية على الحجة والبرهان، مشتملة على الحق والبرهان، فكان يستشهد بالعقل، ويعتضد بالعلم، ويستنصر بالوجدان، ويحتج بأيام الله في الأمم الخالية، و ما استفاض من أخبارها، وبقي من آثارها من أنباء الأولين، وما يمر الناس عليه ﴿مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

على كل مسلم أن يكون داعيا إلى الله:

لقد كان في بيان أن الدعوة إلى الله هي سبيل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما يفيد أن على أتباعه ـ وهو قدوتهم ولهم فيه الأسوة الحسنة ـ أن تكون الدعوة إلى الله سبيلهم.

ولكن لتأكيد هذا عليهم وبيان أنه من مقتضى كونهم أتباعه، وأن اتباعهم له لا يتم إلا به ـ جاء التصريح بذلك هكذا:

﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤١١) من حديث أبي نضرة عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالمسلمون أفرادا وجماعات، عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله، وأن تكون دعوتهم على بينة وحجة وإيمان ويقين، وأن تكون دعوتهم وفقا لدعوته، وتبعا لها.

ماهية الدعوة:

١ ـ فمن الدعوة إلى الله: دروس العلوم كلها، مما يفقه فى دين الله، ويعرف بعظمة الله وآثار قدرته، ويدل على رحمة الله وأنواع نعمته. فالفقيه الذى يبين حكم الله وحكمته، داع إلى الله، والطبيب المشرح الذى يبيِّن دقائق العضو ومنفعته داع إلى الله، ومثلهما كل مبين فى كل علم وعمل.

٢ ـ ومن الدعوة إلى الله: بيان حجج الإسلام، ودفع الشبه عنه، ونشر محاسنه بين الأجانب عنه ليدخلوا فيه، وبين مزعزعى العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه.

٣ ـ ومن الدعوة إلى الله: مجالس الوعظ والتذكير، لتعريف المسلمين بدينهم، وتربيتهم فى عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ماجاء به، وتحبيبهم فيه، ببيان ما فيها من خير وسعادة لهم. وتحذيرهم مما أدخل من محدثات عليه هى سبب كل شقاوة وشر لحقهم. وبيان أنه ما من سبب مما تسعد به البشرية أفرادها وأممها إلا بيَّنه لهم ودعاهم إليه، وما من سبب مما تشقى به البشرية أفرادها وأممها إلا بيَّنه لهم ونهاهم عنه. وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم، وبقاياه الباقية لديهم، ومظاهره القائمة بهم، لما بقيت لهم ـ وهم المجردون من كل قوة ـ بقية، ولتلاشت أشلاؤهم ـ وهم الأموات ـ فى الأمم الحية.

٤ ـ ومن الدعوة إلى الله: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة: فيجب باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب، وهو أضعف الإيمان[1]، وأقل الأعمال فى هذا المقام.

---

(١) وفيه الحديث عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». رواه مسلم فى الإيمان حديث ٧٨. وأبو داود فى الصلاة باب ٢٤٢، والملاحم باب ١٧، والترمذى فى الفتن باب ١١. وابن ماجة فى الإقامة باب ١٥٥، والفتن باب ٢٠، والنسائى فى الإيمان باب ١٧. وأحمد فى المسند (٣/ ١٠، ٢٠، ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٦٢).

٥ ـ ومن الدعوة إلى الله : ظهور المسلمين ـ أفرادا وجماعات ـ بما فى دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة وعلم وعمل وصدق وأمانة، فذلك أعظم مرغب للأجانب فى الإسلام، كما كان ضده أعظم منفر لهم عنه، وما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم، إلا أن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال، كما يدعون بالقول، ومازالت الأعمال عياراً على الأقوال.

٦ ـ ومن الدعوة إلى الله : بعث البعثات إلى الأمم غير المسلمة، ونشر الكتب بألسنتها، وبعث المرشدين إلى عواصم الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم. وكل هذا من الدعوة إلى الله ثابتة أصوله فى سنة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسنة السلف الصالح من بعده.

فعلى كل مسلم أن يقوم بما استطاع منه فى كل وجه من وجوهه، وليعلم أن الدعوة إلى الله على بصيرة هى سبيل نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسبيل إخوانه الأنبياء صلوات الله عليهم من قبله.

فلم يكن المسلم ليدع من هذا المقام الشريف ـ مقام خلافة النبوة ـ شيئا من حظه، وإذا كان هذا المقام ثابتا لكل مسلم ومسلمة، وحقا القيام به ـ بقدر الاستطاعة ـ على كل مسلم ومسلمة ـ فأهل العلم به أولى وهو عليهم أحق، وهم المسئولون عنه قبل جميع الناس.

وما أصاب المسلمين ما أصابهم إلا يوم قعد أهل العلم عن هذا الواجب عليهم. وإذا عادوا إلى القيام به ـ وقد عادوا والحمد لله ـ أوشك ـ إن شاء الله ـ أن ينجلى عن المسلمين مصابهم.

تفرقة :

ليس كل من زعم أنه يدعو إلى الله يكون صادقا فى دعواه، فلابد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين. والفرق بينهما ـ مستفاد من الآية ـ بوجهين :

الأول : أن الصادق لا يتحدث عن نفسه، فلايستطيع أن ينسى نفسه فى أقواله وأعماله.

وهذا الفرق من قوله تعالى : ﴿إِلَى اللَّهِ﴾.

الثانـي : أن الصـادق يعتمـد على الحجة والبرهان، فلا تجد في كلامـه كذبا ولا تلبيسا ولا ادعـاء مجـرداً، ولا تقـع من سلوكـه في دعوتـه علـى التواء ولا تناقض ولا اضطراب.

وأما الكاذب فإنه بخلافه : فإن يلقى دعاويه مجردة ويحاول تدعيمها بكل ما تصل إليه في يده، ولا يزال لذلك في حنايا وتعاريج لا تزيده إلا بعداً عن الصراط المستقيم.

وهذا الفرق من قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

مباحث لفظية :

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يتعلق بـ ﴿أَدْعُو﴾، واختيرت ﴿عَلَى﴾ لتدل على تمام التمكن، و﴿أَنَا﴾ تأكيد للضمير المستتر في ﴿أَدْعُو﴾، ونكتته الإعلان بنفسه في مقام الدعوة، وشأن الداعي على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستسر بها، واتصال اللفظ الدال عليه باللفظ على اتباعه كماتتصل بدعوته.

وشأن الصورة اللفظية مطابقة الصورة الخارجية والكلام تصوير للواقع.

﴿مَنِ﴾ تفيـد العـموم لكل تابع، وأكـملهم في الاتبـاع أكـملهم في الدعـوة، لأن الموصول يفيد التعليل بصلته، فهم يدعون لأنهم متبعون.

تنزيه الله تعالى :

الاعتراف بوجود خالق للكون يكاد يكون غريزة مركوزة في الفطرة، ويكاد لا تكون لمنكريه ـ عناداً ـ نسبة عددية بين البشر.

ولكن أكثر المعترفين بوجوده قد نسبوا إليه ما لايجوز عليه، ولا يليق بجلاله : من الصاحبة والولد، والمادة والصورة، والحلول، والشريك في التصرف في الكون، والشريك في التوجه والضراعة إليه، والسؤال منه والاتكال عليه. فأرسل الله الرسل ليبينوا للخلق تنزهه عن ذلك كله.

وكان من سبيل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه يدعو الخلق إلى الله، وينزهه عن كل ما نسبه إليه المبطلون وتخيله المتخيلون، وهو معنى قوله : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

فهو يدعوهم إلى الله الذى قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه هو خالق الكون وخالقهم، لا يسميه إلا بما سمى نفسه، ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بآثار قدرته، ومواقع رحمته، ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته، ووحدانيته فى جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته لا فى ذاته، ولا فى أسمائه، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله.

وهذا التنزيه ـ وإن كان داخلا فى الدعوة إلى الله ـ فإنه خصص بالذكر، لعظم شأنه، فإنه ما عرف الله من شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية.

فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها، تنزيه الله تعالى عن الشبيه والشريك، وكل ما لا يليق والمسلمون المتبعون لنبيهم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى الدعوة إلى الله على بصيرة، متبعون له فى هذا التنزيه: عقداً، وقولاً، وعملاً، وإعلانا، ودعوة.

مباحث لفظية:

﴿سُبْحَانَ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره أسبح أى أنزه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَدْعُو﴾ فهى من بيان القبيل.

البراءة من المشركين:

الأمة التى بعث منها النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهى أول أمة دعاها إلى الله، هى الأمة العربية، وهى أمة كانت مشركة تعرف أن الله خلقها ورزقها وتعبد مع ذلك أوثانها؛ تزعم أنها تقربها إلى الله، وتتوسط لها لديه!!

فكان النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يدعو إلى الله وينزهه، يعلن براءته من المشركين وأنه ليس منهم: براءة من عقيدتهم وأقوال وأعمال شركهم. فهو مباين لهم فى العقد، والقول والعمل مباينة الضد للضد، فكما باين التوحيد الشرك باين هو المشركين وذلك معنى قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذه البراءة والمباينة ـ وإن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى الله وينزهه ـ فإنها نص عليها بالتصريح لتأكيد أمر مباينة المشركين والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليه وخفيه.

فى جميع مظاهر شركهم، حتى فى صورة القول كما «شاء الله وشاء فلان». فلا يقال: «وشاء فلان» كما جاء فى حديث بيناه فى جزء من الأجزاء الماضية.

أو فى صورة الفعل: كأن يسوق بقرة أو شاة مثلا إلى ضريح من الأضرحة، ليذبحها عنده، فإنه ضلال كما قاله «الشيخ الدردير فى باب النذر».

فضلا عن عقائدهم: كاعتقاد أن هناك ديوانا من عباد الله يتصرف فى ملك الله وأن المذنب لا يدعو الله وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات، وذلك الميت يدعو الله!!

لتأكيد أمر المباينة للمشركين فى هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره وجليه وخفيه.

والمباينة والتبرى لازمة من كل كفر وضلال، وذلك مستفاد من الدعوة إلى الله وتنزيهه، وإنما خصص المشركين لما تقدم، ولأن الشرك هو شرك الكفر وأقبحه.

ولما كانت هذه المباينة والبراءة داخلة فى الدعوة إلى الله وتنزيهه، فالمسلمون المتبعون لنبيهم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يدعون إلى الله على بصيرة وينزهونه، يباينون المشركين فى عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ويطرحون الشرك بجميع وجوهه ويعلنون براءتهم وانتفاءهم من المشركين. والحمد لله رب العالمين.

وهذا هو تفسير ابن باديس لآخر سورة من سور المصحف الشريف «سورة الناس»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الناس].

تمهيد:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التى قبلها (هى المعوذتان)، وعلمنا أنها تسمية نبوية، وقد جرت الصفة مجرى الاسم لهما.

أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو (الناس) كما أن الاسم الخاص بالسورة الأولى (الفلق) [1]. والمناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكهما فى الوصف، وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما، وفى السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام، ومن ثلاثة أنواع[2]، منه ذكرنا الحكمة فى تخصيصها بالذكر، وفى هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب فى شرور كثيرة.

النفوس الشريرة :

والمناسبة القريبة بين السورتين هى أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام:

١ـ قسم يصدر عنه الضرر ويعمله.

٢ ـ قسم لا يريد الخير فيسعى فى سلبه وانتزاعه، وهو شر من الأول.

٣ ـ قسم يعمل إلى إيصال الشر إلى سلطان الجوارح، ومالك هديها وهو المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله [3].

فهو يحسن له الأشياء القبيحة ويأتيه من جميع النواحى على وجه النصح وإرادة الخير. ويزين للإنسان كل مايرد به من القبائح، ويأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قريبا منه متصلا بهواه، وهذا القسم الأخير هو الذى يوسوس بكلمة السوء مزينة الظاهر مغطاة القبح، حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك.

ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطرا وأكثر شرا وأخسر عاقبة ـ خصص التعوذ منه سورة كاملة.

﴿ رَبِّ النَّاسِ ﴾ هو مربيهم ومعطيهم فى كل مرتبة من مراتب الوجود وما يحتاجون إليه لحفظها وهاديهم لاستعمال مامن به عليهم فيما ينفعهم : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

---

(١) كتاب «إحياء علوم الدين».

(٢) هى : شر ماخلق، وشر الغاسق إذا وقب، وشر النفاثات فى العقد.

(٣) ألا وهو القلب، كما جاء فى الحديث من طريق النعمان بن بشير عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «. . . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب». رواه البخارى فى الإيمان باب ٣٩، ومسلم فى المساقاة حديث ١٠٧، وابن ماجة فى الفتن باب ١٤، والدارمى فى البيوع باب ١.

وأصله من ربه يربه ربًا إذا قام على نشأته وتعهده فى جميع أطواره إلى التمام والكمال، ولفظه لفظ المصدر ولكن معناه معنى اسم الفاعل، كالعدل يراد به العادل.

و﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ هو الذى يملك أمر موتهم وحياتهم، ويشرع لهم من الدين ومن الأحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والأخروية.

و﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ هو الذى يدينون به بالعبادة والعبودية.

وبلاغة الترتيب، إنما تظهر جلية عند استعراض أطوار الوجود الإنسانى.

فالأول: طور التربية والإعداد، وهما من مظاهر الربوبية.

والثانى: طور القوة والتدبير، وهما من مظاهر الملك.

والثالث: طور الكمال والقيام بوظائف العبودية، وهمامن مظاهر الألوهية.

المستعاذ منه:

المستعاذ منه تارة يوسوس للإنسان بما يفسد عليه صلته بربه، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه، وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهى أشرف علائقه به وأقوى صلاته.

وجماع ذلك أن يبعده عن الله بالوسوسة بواحدة من هذه أو بكلها، وبما يتفرع عنها مما تضمنته الآيات المبينة لأفعال أصل هذه القوة الموسوسة.

مثل قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

أو لذلك الشأن الجارى مجرى الحوار بين إبليس وبين خالقه، كقوله تعالى ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

وكقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وكقوله: ﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٩].

فهو جاهد في أن يبعد الناس عن الله، بإفساد العقيدة الصحيحة فيه أو بالصرف عن شرع الله، أو بالحمل على عبادة غيره، فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التي يريد الشيطان أن يقطعها.

و(الرب) رب الناس وغيرهم، بل رب العالمين. وإنما خص الناس بالذكر:

١ ـ لأنهم هم هدفه ومرمى وسوسته، ولأنهم هم المأمورون بالاستعاذة منه، ولأن عالم التكليف أشرف؛ فإليهم يوجه الخطاب وإليهم يساق التحذير. وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين أصليهما، فأمر الله بالاستعاذة منها هو تصليح إلهي لبني آدم لتثبيت سنة التعمير التي هي حكمة الله من وجودهم.

٢ ـ ونكتة أخرى في تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين، وهي أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال.

وقد ضلوا بالفعل في ربوبية الله وفي ألوهيته: ضلوا في الربوبية باتخاذ المشرعين ليشرعوا لهم في الدين مالم يأذن الله ويصدوهم بذلك عما شرع الله، وضلوا في الألوهية بعبادة غير الله بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء.

واختير لفظ الناس، من بين الألفاظ المشاركة له في الدلالة كالبشر والبرية، لأنه ينوس ويضطرب وينساق، وهي صفات يلزمها التوجه، ويسهل التوجيه، فلا غنى لصاحبها عن توفيق الله للوجهة الصالحة، والتسديد فيها، ما دام لايملك لنفسه ذلك، ومادام محاسبا عليه، ومادامت هناك قوة مسلطة تنزع به إلى الشر.

ففي تخصيص الناس بالذكر تنبيه إلى أنهم أحوج المربوبين إلى تأييد الله وأحقهم بطلب ذلك منه، وقد أرشدهم إلى ذلك وله الحمد.

ولو تفقه الناس في معنى اسمهم واشتقاقه، لعلموا بفطرتهم أنهم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، ولأيقنوا أنه لابد لهم من رب يربيهم ويحميهم، ومالك يدبر أمورهم، وإله يعبدونه ويتخذون العبودية له جنة من استعباد الأقوياء.

ويجوز ـ إذا راعينا الأدب وكمال التنزيه في حمل الألفاظ التي تضاف إلى كلمة رب على أشرف معانيها ـ أن تحمل كلمة (الناس) على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس، وهو الأماثل والأخيار منهم الجامعون لمعاني الإنسانية الفاضلة، وهذا المعنى تعرفه العرب: فإنهم كثيرا ما يطلقون اسم الجنس على الفرد، أو الأفراد الكاملين في

حقيقته، وإن كان هذا من المجاز فى كلامهم وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة : ١٣].

نكتة الإعادة والإظهار للفظ الناس توضيح المعنى، وإلفات النفس إليه، وإيقاظ شعورها به، والتسجيل على الناس بأن لهم ربا هو مالكهم وإلههم.

من شر الوسواس:

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ : (الوسواس) هنا صفة الموسوس، وإن خالف المعهود فى أبنية الصفات أو هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال والزلزلة.

وأصل هذه الكلمة دائر على معنى الخفاء والعرب تسمى حركة الحلى وسواسا [1] وهذا المعنى واضح فى المراد هنا، فإن الموسوس من الجن فى نهاية الخفاء هو وعمله، والموسوس من الإنس يتحرى الإخفاء ما استطاع ويحكم الحيلة فى ذلك، ولا يرمى رميته إلا فى الخلوات، وإن الناس ليعرفون عرفانا ضروريا من الفرق بين المصلحين والمفسدين.

إن الأولين يصدعون بكلمة الحق مجلجلة، ويرسلون صيحته داوية، ويعملون أعمالهم فى وضح النهار ومحافل الخلق.

وإن الآخرين يتهامسون إذا قالوا، ويستترون إذا فعلوا، ويعمدون إلى الغمز والإشارة والتعمية، ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات ولكان الزمن كله ظلمات والأرض كلها مغارات.

الخناس :

﴿الْخَنَّاسِ﴾ وصف مبالغة فى الخانس من الخنوس، وهو التأخر بعد التقدم، ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته فى المحسوس : أنه يذهب ويجىء ويظهر ويختفى

---

(١) ومنه قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل

(انظر لسان العرب : ٦/ ٢٢٥ ـ مادة وسس).

إغراقا فى الكيد، وتقصيا فى التطور، حتى يبلغ مراده. فالله تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة إلى أن له فى عمله كرا وفرا، وهجوما وانتهازًا، واستطرادا على التصوير الذى صوره إبليس فيما حكى الله عنه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]. يرشدنا بذلك لنعد لكل حالة من حالاته عدتها، ولنضيق عليه المسالك التى يسلكها.

كما أن وصفه بهذه الصفة بأنه ضعيف الكيد لأن الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام، وإنما هو كالذباب: تذبه بذكر الله من ناحية فيأتيك من ناحية، ثم دواليك حتى تمل أو يمل.

وأما التهويل فى وصفه بما يأتى بعد، فهو مبالغة فى التحذير منه لأن وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل فى أمره.

الوسوسة ومحلها:

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾. قال: ﴿يُوَسْوِسُ﴾ بالمضارع إشعارًا بعد إشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها، وقال: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ والصدر ملتقى حنايا الأضلع ومستودع القوى التى كان الإنسان إنسانا بها، ومجمع المضغ[1] التى تحمل تلك القوى، والقلب واحد منها، فالقلب غير الصدر، إنما هو فيه، ولذلك قال: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومواقع استعمال القرآن لكلمة الصدر مفردًا وجمعًا - فالحكم عليها بالشرح، والحرج، والضيق، والشفاء، والإخفاء، والإكناد - ترشدنا إلى أنه ليس المراد منه الصورة المادية ولا أجزاءها المادية، إنما المراد القوى النفسية المستودعة فيه وأن الوسواس الخناس، يوجه كيده ووسوسته دائما إلى هذه القلعة التى هى الصدر، لأنها مجمع القوى.

وقال: «فى صدور الناس»، ولم يقل فى قلوب الناس، لأن القلب مجلى العقل

---

(١) المضغ: جمع مضغة، وهى القطعة التى تمضغ من لحم وغيره (المعجم الوسيط: ص ٨٧٥).

ومقر الإيمان، قد يكون محصنا بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره ولا يستطيع له نقبا.

من الجِنَّة والناس:

﴿الْجِنَّةِ﴾ جماعة الجن وهم خلاف الإنس، والمراد هنا أشرار ذلك الجنس، لأن منهم المسلمين ومنهم القاسطين [1].

واستعمل لفظ الجنة فى القرآن بمعنى المصدر الذى هو الجنون، فى قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ولما كان الموسوسون فريقين متعاونين على الشر، ذكرهما الله تعالى فى مقام الاستعاذة من شر الوسوسة، ليلتئم طرفا الكلام ويحصل التقصى الوصفى المستعاذ به والمستعاذ منه.

وقد قسم القرآن الشياطين، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة إلى قسمين:

شياطين الإنس، وشياطين الجن: وذكر بعضهم يوحى إلى بعض زخرف القول، وشياطين الجن ميسر للشر، فكل من يعمل عمله من الإنس فهو مثله، ومن شياطين الإنس بطانة السوء وقرين السوء.

القريـن:

ورد فى الآثار أن لكل إنسان قرينا من الجن[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [فصلت: ٢٥].

---

(١) كما قال تعالى فى الآية ١٤ من سورة الجن: ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾.

(٢) فى صحيح مسلم (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٦٩) عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مامنكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياى، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم، فلايأمرنى إلا بخير» وأخرجه أيضا أحمد فى المسند(١/ ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٦٠) والدارمى فى مسنده (كتاب الرقاق، باب ٢٥).

وهو من باب توزيع الجمع على الجمع : أى لكل واحد قرين.

فهذا الإنسان الضعيف يلازمه قرين من الجن، ثم لايخلو من قرين أو قرناء من الإنس، يزينون له ما بين يديه وما خلفه، ويصدونه عن ذكر الله. فماذا يصنع؟ ماعليه إلا أن يلتجئ إلى الله، ويستعيذ به ويتذكر، فإنه لا يؤخذ وهو ذاكر مستيقظ، وإنما يؤخذ إذا كان غافلا، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [فصلت : ٣٦] وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١].

دقائق بلاغية :

ومن دقائق القرآن ولطائفه فى البلاغة، أنه يقدم أولا الاسمين المتلازمين فى آية، لسر من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام، ولا يؤخر ذلك المقدم فى آية أخرى، لسر آخر ؛ فيقدم السماء على الأرض فى مقام، ويؤخرها عليها فى مقام آخر.

ومن هذا الباب تقديم الإنس على الجن فى آية الأنعام [1]، لأن معرض الكلام فى عداوتهم للأنبياء، وهى من الإنس أظهر، ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح.

وفى آية «الناس» قدم الجنَّة على الناس، لأن الحديث عن الوسوسة، وهى من شياطين الجن أخفى وأدق، وإن كانت من شياطين الإنس أعظم وأخطر وأدهى وأمر؛ فشيطان الجن يستخدم شيطان الإنس للشر والإفساد، فيربى عليه ويكون شرا منه لأنه بمثابة السلاح الذى يفتك به، ورب كلمة واحدة صغيرة يوحيها جنى لإنسى، ويوسوس إليه بتنفيذها، فتتولد منها فتن، ويتمادى شرها من قرن إلى قرن ومن جيل إلى جيل.

وهذا النوع الإنسانى المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر، إذا انحط وتسفل كان شرا محضا. وإذا ترقى وتعالى شارف أفق الملأ الأعلى، وأوشك أن يكون

---

(١) الآية ١١٢ : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن﴾.

خيرا محضا، لولا أن العصمة لم تكتسب إلا لطائفة منه، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالإنسان إذا انحط يكون شرا من الشيطان، وإذا ارتقى يكون أفضل من الملك ـ أعني جنس الإنسان ـ ومن هذا الجنس، كان محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أكمل الخلق الذى ليس لمخلوق رتبة مثله فى الكمال. وأخيرا: «**سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**»[1].

---

(١) انظر «تفسير ابن باديس فى مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير»
جمع وترتيب د/ توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان.
علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين ط دار الكتاب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٥ م.

الخاتمة

وبعد..

الوفاء قليل فى البشر، وأوفى الأوفياء من يفى للأموات، لأن النسيان غالبا ما يباعد بين الأحياء وبينهم فيغمضون حقوقهم ويجحدون فضائلهم، مع أن العظماء يموتون فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابى الذى يرجع إلى أصله، وتبقى معانيهم الحية فى الأرض قوة تحرك، ورابطة تجمع ونورا يهدى وعطرا ينعش، وهذا هو معنى العظمة . . .

وهذا هو معنى كون العظمة خلودا ، فإن كل ما يخلف العظماء من ميراث هو أعمال نحتذيها من بعدهم، وأفكار نهتدى بها فى الحياة، وآثار مشهودة ننتفع بها، وأمجاد نعتز بها ونفخر، والاعتزاز والفخر من الأغذية الروحية الحافظة لبقاء الأمة .

وعبد الحميد بن باديس عظيم بأكمل ماتعطيه هذه الكلمة من معنى؛ فهو عظيم فى علمه، عظيم فى أعماله، عظيم فى بيانه وقوة حجته، عظيم فى تربيته وتثقيفه لجيل كامل عظيم فى مواقفه من المألوف الذى صيره السكوت دينا، ومن المخوف الذى صيره الخضوع إلها، عظيم فى بنائه وهدمه، عظيم فى حربه وفى سلمه، عظيم فى اعتزازه بإخوانه ووفائه لهم وعرفانه لأقدارهم.

وإذا كان من خوارق العادات فى العظماء - أنهم يبنون من الضعف قوة ويخرجون من العدم وجودا، وينشئون من الموت حياة - فكل ذلك فعله عبد الحميد بن باديس من الأمة الجزائرية [1].

---

(١) عيون البصائر - الشركة الوطنية للطبع والنشر - الجزائر - ص ٦٨٣ ومابعدها بتصرف.

لقد احتل عبدالحميد بن باديس مكانة طيبة فى النفوس، وحظى بتقدير لجهوده الكبيرة التى بذلها؛ سواء فى ميدان الإصلاح أو ميدان التربية، كما كان أحد الدعاة للقومية العربية الإسلامية. . «إن الاتحاد الإسلامى والوحدة العربية بالمعنى الروحى والمعنى الأدبى والمعنى الأخوى هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان».

يقول عنه رفيق نضاله فى الإصلاح والتربية؛ الشيخ محمد البشير الإبراهيمى إنه: «بانى النهضتين العلمية والفكرية فى الجزائر وسيف المصلحين ومربى جيلين كاملين على الهداية القرآنية، والهدى المحمدى، وعلى التفكير الصحيح وغرس بذور الوطنية الصحيحة، وأول مؤسس لنوادى العلم والأدب، وجمعيات التربية والتعليم».

وقد حظيت أفكار ابن باديس بانتشار واسع، وأصبحت لها مكانتها فى نفوس محبيه، ووقعها المبرح فى نفوس أعدائه قال: «مكدولند» عن الغزالى إنه «يضرب الفلاسفة على ظهورهم وأفخاذهم، ويصوب أسلحتهم إليهم فيفتك بهم» وهو حكم لنا أن نطلقه على ابن باديس، وإن كان لسوء الحظ أن خصومه ليسوا فلاسفة، وإذا كان ابن باديس قد انتهى من الحياة كشخص يسعى ويعيش؛ فإنه مكث بأفكاره وأعماله حيا.

يقول أحمد أمين فى كتابه فيض الخاطر «سيقدر التاريخ الأدباء تقديرا آخر غير التقدير الماضى» لقدكان التقدير الماضى مبنيا على فخامة الأسلوب، وجمال التعبير وقدرة على البديع أما المستقبل فسيكون تقدير الأديب: ماذا صنع لأمته؟ وكيف هداها إلى الخير؟ وإلى أى حد رفع صوته ضد الظلم والفساد؟

وهو تقدير حظى به ابن باديس القائل: «لا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه ولا سمعة لمن لا سمعة لبلاده».

وهوالقائل: «أيها الشعب الجزائرى، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربى: حذار من الذين يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين يأتونك بوحى من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك، وقوميتك. استوح الإسلام، ثم استوح تاريخك، ثم استوح قلبك. اعتمد على الله ثم على نفسك وسلام الله عليك».

* وباختصار، إن أفكار عبد الحميد بن باديس أدت دورها في حياته وقامت بمهمتها أحسن قيام، وفعلت في النفوس سابقا وما يزال لها تأثيرها، وسيبقى لها شأنها، كما أن الأجيال الواعية ستقدر ابن باديس تقديرا عميقا كرجل عاش للجزائر، من أجل إصلاح شعب وأمة، وتربية جيل؛ فكان الرجل المثالي في نكران الذات مما يجعله بحق يستحق الثناء والخلود.

نسأل الله ـ جل في علاه ـ أن يجعل أعمالنا وأقوالنا حسبة لوجهه سبحانه وتعالى، وخدمة للإسلام وللمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

دكتور: محمد بهي الدين سالم